الدرس السابع
شخصية المؤرخ (2)

فيما تعتبر الصفات المنهجية الأساس في عمل المؤرخ المحترف، وفي تطوير ذهنيته، فهي التي تتحدد بالمفردات التالية: ملكة النقد، عدم التحيز والقابلية الكتابية والتي يدور حولها تدريب المبتدئ تدريبا علميا يؤهله لاكتساب منزلة الثقة بين أقرانه، وتمكنه من متابعة حلقات الماضي، وفي تطوير صفاته التي تجعل منه مؤرخا ناجحا.

وفي مقدمة هذه الصفات المنهجية هي: ملكة النقد والشك، أي أن يكون قادرا على الفحص والمقاربة والاستقراء، أي فهم العلاقات التي تربط بين الظواهر المختلفة، ولا يصدق بسذاجة، كل ما يقرأه أو يسمعه، بل عليه تحري الدقة، واستخدام كل الإمكانيات الذهنية من أجل تبين صحة الوثيقة أو صحة الواقعة، واستخراج النتائج منها. فقد أصبح التأريخ يتخذ فعلا صفة علمية منذ اخذ رجاله يشكون في الروايات التي نقلت إليهم بالسماع أو الكتابة، ومنذ أن عمدوا إلى نقد رواتها، وحاولوا امتحان مضمونها. ومهمة المؤرخ هنا تشبه كل من مهمة المحقق والقاضي، فالأول يعمل على وضع مخطط افتراضي للحادثة من خلال استنطاق الشهود وتمحيص أقوالهم، بينما القاضي يجمع شهادات الشهود وينقدها من أجل التوصل إلى الحقيقة قبل إصدار الحكم، ولا يستطيع أي من الاثنين أن يؤدي مهمته على أحسن وجه إذا لم يأخذ هذه الروايات والشهادات بالشك والتحفظ. ومن هنا، لا يمكن للمؤرخ أن ينجز عمله إذا لم يكن يتمتع بملكة النقد والشك، لأنه من دونهما يصبح شخصا عاديا ينقل كل ما يصله من أخبار دون تدقيق وتمحيص ويصدق كل ما يسمعه من روايات على أنها حقيقة واقعة. وعلى المؤرخ أن يكون متزنا في شكه، وواعيا في حسه النقدي، بمعنى آخر أن لا يغالي في الشك والنقد إلى درجه يمكنها أن تفقده الاتزان في الحكم، لكون الاتزان من صفات العلماء، والمؤرخ هنا أحوج ما يكون إليها في عمله الذي يتناول النقد والتجريح ليكون حكمه صائبا في الوصول إلى ما يبغيه من اتهام وتبرئة وصولا إلى الحقيقة التاريخية. بمعنى أن يمتلك المؤرخ ملكتي

النقد والشك التي من خلالها يدرس ويستقرأ ما يسمعه وما يتوصل إليه من وثائق وأصول مختلفة.

كذلك تأخذ صفة عدم التحيز في العمل الكتابي وتكويناته كشرط ضروري في تثبيت مكانة المؤرخ ومنزلته الفكرية، وذلك بالنظر لموضوعه نظرة علمية خالية من تأثيرات المذاهب السياسية والعقائدية، مع أن هذا التحديد لا ينكر على المؤرخ أهمية الالتزام بنظرة فلسفية لكتابة التاريخ. وعلى المؤرخ أن يحرر نفسه من العاطفة أو الإعجاب أو الكراهية، وإلا شوه الوقائع ابتغاء أن يعطي فكرة حسنة عن أصدقائه، وسيئة عن خصومه، ومنذ العصر القديم كان الشائع عند المؤرخين أن يتباهوا بأنهم تجنبوا هذا أو ذاك، أي التحيز مع أو ضد. وعلى العموم صفة التحيز بحد ذاتها هي ظاهرة عامة عند المؤرخين، فهي لا تظهر في جيل منهم لتختفي لاحقا عند جيل آخر، لأنها ظاهرة ملازمة للنشاط الذهني وخلفياته، سواء كان ذلك ظاهرا على من سلك منهم منهجا علميا في بحوثه وأعماله، أو تبني غير ذلك. لكنها في كل الأحوال تناقض مستلزمات الموضوعية التي تشترط التجرد عن التحيز عن طريق النقد والتحليل للمحتوى، مع أن كثيرا من النقاد الاجتماعيين ينكرون على المؤرخ قدرته على التمتع بهذه الصفة.

ومن الأمور الواجب توفرها في إطار الصفات المنهجية، أن يكون المؤرخ ذو روح حركية علمية دؤوبة، وأن يستفيد من كل المصادر التي تفيد بحثه، وألا يدخر وسعا في محاولة الوصول إليها مهما كلفه ذلك من مشقة وجهد ونفقات، ولا يعتمد على بعض المصادر وهو يعلم أن هناك مصادر أخرى قد تفيده في زيادة فهمه للموضوع أو تغيير بعض وجهات نظره.

وعليه أن يكون موضوعيا غير متأثر بالعوامل الذاتية، وألا يجعل لآرائه الشخصية أو معتقداته الدينية أو اتجاهاته السياسية دور في تغيير الحقيقة أو طمس معالمها لجعلها تخدم آراءه ومعتقداته، وألا يقوم بدراسة موضوع ما وهو عازم مقدما وقبل بدء العمل على تحقيق نتائج معينة، بل عليه أن يضع فكره وثقافته وميوله في خدمة البحث العلمي والحقيقة التاريخية وحدهما دون تحيز أو مجاملة. وقد يتعرض للضرر بسبب صدقه والتزامه وموضوعيته، فعليه ألا

يأخذ مواقف مضادة نتيجة لهذا الأذى. والموضوعية هنا، تعني أن تكون لديه روح نقدية لا تتأثر بالمسلمات الموجودة أو الشائعة، وأن ينقد نفسه ويتقبل النقد من الآخرين.

والموضوعية تفرض على الباحث التخلص من كل الخصال والسلوكيات المرفوضة التي تتعارض مع قيمة وأهمية الدور الذي يقوم به. لأننا نجد الكثير من المؤرخين كتبوا تاريخهم بروح التعصب والانحياز، وتركوا العاطفة تغلب على العقل، فجاء تاريخهم مزورا. وعليه ينبغي على المؤرخ أن يتحلى بالأمانة العلمية وأن رائده حب الحقيقة وقولها بشجاعة دون خوف أو تردد، فلا يكذب ولا ينتحل ولا ينافق أصحاب الجاه والسلطة. ولا يخفي الوقائع والحقائق التي قد لا يعرفها غيره في بعض الأحيان، ولا رقيب على المؤرخ في هذه الحالة سوى ضميره. ومن يخرج عن هذه المبادئ سعيا وراء جاه أو انتفاع مادي أو إرضاء لسلطة معينة لا يمكن أن يكون مؤرخا حقيقيا. وهناك من ينكر على المؤرخ القدرة على التزام الموضوعية المطلقة، بمعنى استحالة أن يستقل المؤرخ عن عواطفه وأهوائه وشعوره .

وعلى المؤرخ أيضا أن يكون ذا قدرة على تصور المواقف التاريخية المختلفة، وأن يحاول الاندماج في ملابساتها ومعايشة أبطالها، وتبين ذلك المناخ الذي وقعت فيه الحادثة، والعوامل الموضوعية والذاتية التي أدت إليها، وأن يتعمق في نفسية الأبطال والقادة الذين أسهموا بأدوارهم في حركة التاريخ.

أما عن مسألة إعداد الباحث، فعليه أن يعمل جاهدا لتهيئة نفسه بالشكل الذي يساعده على انجاز الأفضل. ويساعد هذا الإعداد على اختصار الوقت اللازم، ليصل خلاله الباحث لمهنية رفيعة من البحث. وإعداد الباحث عملية مستمرة، لضرورة مسايرته لركب العلم والاطلاع على ما يصدر من معلومات جديدة، ومن أهم ما يلزم تعلمه والتدرب عليه، ما يلي:

1. **القراءة الواعية المتأنية وجمع المعلومات: وهما الأساس في إعداد الباحث للعمل المكلف به. وعلى الباحث أن يقرأ ليس فقط في**

موضوع تخصصه، بل وفي مواضيع أخرى متشعبة، فاتساع المعرفة يؤدي إلى سعة الأفق، وتنوع الأفكار وتجددها، وخلق الابتكار. ومن هنا، ثقافة المؤرخ التاريخية مسألة ضرورية جدا في التعامل العلمي الصحيح مع الأحداث، ومن دون هذه الثقافة لا يمكنه أن يلم بالموضوعات التي يدرسها.

2. الإلمام بقواعد العلوم الأساسية والقواعد العلمية: والتي تعتبر خير الدعائم التي يرتكز عليها ليقيم بنيانه الفكري.
3. التدرب على تقليب الأمور وتدبرها: عبر ملاحظة التوافق والتعارض بين النتائج والنظريات أو الأفكار السائدة عامل له دلالته في خلق أفكار جديدة وفي تطوير معارف قائمة.
4. تنمية الفضول العلمي: لأنه يساعد الباحث لبذل جهد أكبر من أجل تقصي الوقائع للوصول إلى كل ما هو جديد.
5. إذكاء روح المناقشة: وتفيد المناقشة في تقصي الحقائق، وتبادل وجهات النظر، وتوجيه نظر الباحث لزوايا أخرى للموضوع والتزود بمقترحات نافعة، وتجنب أخطاء كان من المحتمل الوقوع فيها.
6. حضور الملتقيات: يودي ذلك إلى تعرف الباحث بغيره من الباحثين العاملين في مجال تخصصه، والى زيادة اهتمامه بما يقوم به من دراسات، وإدراك كيفية المناقشات والمعارضة والتأييد.
7. التدرب على طريقة كتابة البحث: إذ لا يقل الإلمام بمنهجية كتابة البحث عن أهمية القراءة والتحليل. إذ ينبغي على الباحث تعلم ذلك ليكون تعبيره واضحا، دقيقا، مختصرا وبأسلوب سلس.

خلاصة القول، أن شخصية المؤرخ لا تكتمل إلا إذا تحققت الصفات التي أشرنا إليها، وبامتلاكها سيتمكن من تحقيق الشروط الثلاث التي تأخذ به نحو كتابة تاريخية على مستوى عال من العلمية والموضوعية، ونعني هنا:

1. القدرة العلمية.
2. قدرة التأمل والتفكير ونفاذ البصيرة.

3. **القدرة الأدبية.**

ومن خلال هذا الفصل، نجد أن كتابة التاريخ ليس بالأمر السهل على الإطلاق، فهو تنظيم وحسن استيعاب ومتابعة لكميات كبيرة من الحقائق غير واضحة العلاقة مبدئيا. ومع وجود ما يتوفر للمؤرخ من وسائل محددة للتأكد من صحة ما يقرأ سواء كان ذلك يتم عن طريق النقد أو عن طريق اللجوء إلى الأسئلة المباشرة. وهذا يحتاج أن يكون الباحث ملما بكل الجزئيات مهما كانت، والتي تخص العملية والشكل العام للبحث وهو ما سوف نسلط عليه الضوء في الموضوعات القادمة.